خمسون عاماً

أتت على ميلاد مجمعنا المبارك خمسون عاماً وكأنّها خلسة نظر ، فما هي الذكرى التي بقيت في الذهن بعد نصف قرن ، أرجع بالخاطر إلى أوائل نشأة المجمع الذى شرّفني بانتخابي عضواً فيه سنة ١٩٢٦ على ما أذكر .

كانت تلقى في المجمع محاضرات عامّة كل أسبوع ، وكان الإقبال على تلك المحاضرات عظيماً ، فالناس كانوا في رغبة شديدة في المعرفة والاطّلاع ولذلك كانوا يزدحمون أيّام المحاضرات ، ولست أستطيع أن أقول أن تلك المحاضرات كانت على درجة واحدة من الجودة ، فبعضها كان شبيهاً بالمواعظ ، يرتجلها أصحابها دون استعداد ولا تحضير ، كأنّهم على منابر الوعظ ، وبعضها كان فوق مدارك الجمهور ، أذكر أني سمعت بعض الحضور يقولون بعد أن فرغ أحد المحاضرين من محاضرته وقد خاض في موضوع من موضوعات اللغة : هذا فوق مداركنا !

فاتحني مرّة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ، أدخله الله في رحمتـــه بأمر هذه المحاضرات ، وقد كثرت حتى كاد أثرها يضعف في النفوس ، فقلت للأستاذ العظيم : أرجو أن يقلّل المجمع من المحـاضرات العامّة ، أو أن يلغيها لأن فائدتها بعد كثرة المدارس ونشأة الجامعة قد قلّت ، فلم تبق حاجة ماسّة إليها ، فالمجمع ينبغي أن يكون عمله غير إلقاء المحاضرات العامّة على أنّه قد خفّ إقبال الناس عليها ، وما زال هذا الإقبال يخفّ حتى أبطلت المحاضرات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا أبطلت تلك المحاضرات في المجمع فقد قامت مقامها مظاهر ثانية ، من هذه المظاهر تأبين البلغاء من الكتّاب والشعراء ، وفي جملتهم المنفلوطي وحافظ وشوقي أو تكريم الفحول منهم في حياتهم ، أمثال شوقي وحافظ ومطران والزهاوي ، تغمّدهم الله بواسع رحمته ، ولا تكاد تحضرني عبارة الإفصاح عن استقبال شوقي يوم أُلقيت قصيدته الخالدة ، وقد كان لا يلقي شعره وإنما ألقاها عنه المرحوم نجيب الريّس ، أمّا أثر هذه القصيدة فاني عاجز عن وصفه ، فقد نقلت الناس من حاضرهم الأليم إلى ماضيهم الرائع ، نقلتهم من أيّام الانتداب الفرنسي إلى أيّام بني أميّة وعزّ سلطانهم ، حتى خرج الناس من المجمع وكأنهم سكارى .

ثم تقلّب المجمع في أحوال مختلفةٍ كان خلالها في مهبّ الريح ، مرّة كانوا يلحّون في مجلس النوّاب في إلغائه ، ومرّة كانوا يطلبون التضييق عليه حتى انبرى الأستاذ فارس الخوري ، رحمه الله تعالى ، وهو صاحب الحجّة القاطعة للدفاع عنه في مجلس النوّاب .

وما زال المجمع تهبّ عليه رياح مختلفة حتّى نعم بالاستقرار والطمأنينة فانصرف إلى جلائل أعماله دون قلق واضطراب ، وعلى رأس هذه الأعمال المحافظة على لغة العرب .

لست في حاجةٍ إلى الكلام على شهرة المجمع ورآء البحار ، فهو في نظر المستشرقين عنوان أدب البلاد ولغتها وتاريخها ، هو عنوان المحافظة على هذا الأدب وهذه اللغة وهذا التاريخ ، ونرجو أن يبقى عنواناً لهذه الأمور الشريفة على تراخي السنين .

هذا يسير ممّا بقي في الذهن من ذكرى مجمعنا في خمسين عاماً ، وإذا أشرت في هذا المقام إلى طائفة من أفاضل أعضائه الراسخين في اللغة ، أمثال المبارك والجندي وغيرهما وإذا كنت أقتصر على هذه الإشارة فالسبب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ذلك اني أرى أن مجمعنا خلّده الله تعالى إنما عمله المحافظة على لغتنا ، على روحها وعبقريتها ، ولا سيما في زمن قلّت فيه العناية باللغة ، وأصبح كل من يمسك بالقلم يعتقد أنه حرّ في التصرف في حرمتها ، يخترع من الألفاظ ما يريد ، ويركّب من الجمل ما يشاء ، ويستعمل من هذه الألفاظ وهذه الجمل ما لا نفهمه نحن الذين نعيش في هذا العصر ، وما لن يفهمه الذين يأتون بعدنا في المستقبل من الأيّام ، لقد أصبحت اللغة يومنا هذا فوضى في كثير من الأحوال ، نقرأ في بعض الصحف والمجلاّت والكتب ما لا نهتدي إلى معناه ، وإذا قابلنا بين هذا الزمن الذي نعيش فيه وبين الزمن الذي كان يعيش فيه شيوخ اللغة وأمراء البيان أشباه اليازجي وأرسلان ومن هم في طبقتهما نجد الفرق عظيماً ، إذا قابلنا بين غيرتهم على اللغة وبين استخفاف كثير من أهل هذا الزمن بتقديسها بلغ العجب منّا كل مبلغ ، كان أحدهم إذا زلّ به قلمه زلّة قامت الدنيا وقعدت ، فكثرت المناظرات في الصحف والمجلاّت من أجل لفظة واحدة ، أمّا اليوم فلا تقوم الدنيا ولا تقعد من أجل ألفاظ ليست من اللغة في شيء ، ومن أجل تراكيب لا يعلم معانيها إلاّ الله عزّ وجلّ ، فقد يقع نظرنا على ألفاظ لا أصل لها وعلى تراكيب خارجة عن روح اللغة ، فلا نجد من ينبّه عليها ولا نجد من يهتمّ بهذا التنبيه إذا وقع ، ولسنا نعلم عواقب هذه الأمور ، لسنا نعلم ما تصير إليه اللغة بعد حين من الدهر إذا استمرّ كثير من الذين يمسكون بالأقلام في التصرّف في اللغة بحسب مشيئتهم وأهوائهم ونزعاتهم .

من أجل هذا كلّه أرى أن عمل مجمعنا الوحيد إنما هو المحافظة على روح اللغة وعبقريتها حتى تبقى لغة عربية ، من روح اللغـــة التي كانت شائعة على أقلام أئمة البلاغة في عصورنا الخالية ، نظراء ابن المقفع والجاحظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتوحيدي وغيرهم ممّن كان يجري على أساليبهم ، وإذا وجدنا من يقول أن الزمن قد تبدّل ، فلماذا لا تتبدّل اللغة ، إذا وجدنا من يقول هذا القول فإنّا نقول له ولإخوانه : قد يتبدّل الزمن وقد يتبدّل التفكير وقد تتبدّل اللغة ، ولكن تبدّل اللغة لا ينبغي له أن يخرجها عن روحها وعن عبقريتها .

أخذ الله بيد مجمعنا حتى يحافظ على هـــذه اللغة وعلى هذه الروح وعلى هذه العبقرية !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net